

## اللاهوت الصوفي في المسيحية الشرقية

إيريني أرتامي وخريستوس تارازيس [١]

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في بداية هذا المقال [٢] سوف نقدّم في بضع كلمات كيف فهم أفلاطون وأفلوطين اللاهوت الصوفي وكيف أثروا على الآباء المسيحيين. أدرك أفلوطين مصطلحات الفلسفة اليونانية وكيفها مع التعاليم المسيحية. يوضح أندرو لاوث أن: "اللاهوت الصوفي، أو ربما التعبير الأفضل هو عقيدة التأمل، ليس مجرد عنصر في فلسفة أفلاطون، بل هو شيء يخترق ويعلم فهمه الكامل للعالم. يرى أفلاطون العالم الذي نعيش فيه - عالم التبذل والتخمين والرأي - كعالم تستحيل فيه المعرفة. يجب أن تكون المعرفة مؤكّدة، ويجب أن يكون موضوع المعرفة ثابتًا وأبديًا، وما من شيء في هذا العالم يلبي هذه المتطلبات. إن استعادة المعرفة الآمنة للحقيقة والجمال، لما هو حقيقي وحده، هي موضوع الفلسفة. هذه المعرفة في كمالها مستحيلة في هذه الحياة، لذا فإن الفلسفة هي تحضير لقابلية الموت وللموت نفسه" [٣]. بالنسبة لأفلوطين، "حقيقة كلمة الله ليست شيئًا يستطيع العقل البشري تحليله"، وهو يسمّى المبادئ الأساسية الثلاثة لماورائياته "الواحد" (أو بالتوازي "الخير")، والعقل، والروح [٤]. هذه المبادئ هي حقائق وجودية نهائية ومبادئ تفسيرية. يمتلك البشر القدرة للحصول على معرفة جيدة لكل حقيقة، بما في ذلك الأشياء الإلهية. إن "واحد" أفلوطين يسمو على الوجود ولا يمكن أن يقال عنه شيء حرفيًا، ولا حتى أنه كذلك، لكنه أيضًا يسميه "الخير". إنه فوق كل "الأشكال" الأخرى وأسمى من الوجود.

إن المسيحية استثنائية. هي ليست دينًا "اخترعه" إنسان. إنها فريدة من نوعها. إنها الحقيقة الفدّة لعمل الله لاستعادة البشرية من حالتها الساقطة من خلال ابنه يسوع المسيح. ليست المسيحية نشرًا لفلسفة. إنه التعليم عن استعلان الله الخارق للطبيعة للإنسان. ليست المسيحية أداءً لمناهج دينية. ليست استمرارًا لبرنامج تنظيمي. المسيحية هي قبول شخص، هو يسوع المسيح ابن الله، الله نفسه، في كيان الإنسان وسلوكه. في المسيحية، يمكن للمؤمن بلوغ معرفة الله من خلال لاهوت الصلاة الصوفي، لاهوت المؤمنين.

في كل الأديان الأخرى يحاول الإنسان الوصول إلى الله؛ في المسيحية يأتي الله إلى الإنسان. لقد اختفت الهاوية التي كانت قائمة بين الله والإنسان بعد طرد الأخير من الفردوس، بطريقة رائعة، بتجسد كلمة الله. على الرغم من أن الله يمكن أن يخلص الإنسان ويعيد علاقته به بألاف الطرق [٥]،

إلا أنه اختار تجسد الكلمة وآلامه وصلبه وقيامته ليخلص مخلوقه المفضّل، الإنسان، "لأن الله محبة" [٦].

يشير مصطلح "اللاهوت الصوفي" بشكل عام إلى خبرة مباشرة وفورية للمقدّس، أو المعرفة المستمدة من هذه الخبرة. عادة ما تأخذ هذه الخبرة في المسيحية شكل رؤية أو شعور بالاتحاد مع الله؛ عادة ما يكون اللاهوت الصوفي مصحوبًا بالتأمل والصلاة والنسك. إنه يكشف عن فهم التكامل الداخلي للوعي الصوفي والفرق بين المعرفة بالتجربة المباشرة والتعبير اللاهوتي. يكون كل لاهوت صوفياً بقدر ما يُظهر السر الإلهي [٧].

يسعى اللاهوت الصوفي إلى وصف معرفة لله، متمرسه مباشرة غير تجريدية، بدون وسيط، ومُجَبَّة. إنها معرفة أو رؤية مباشرة إلى درجة أن تسمّى الاتحاد بالله. هدفها التألّه. التألّه، وهو مصطلح غالبًا ما يستخدم بالتبادل مع الألوهية، هو مفهوم متعدد الأوجه نشأ في البداية خلال القرون الأولى للمسيحية [٨]. يشهد اللاهوت الصوفي المسيحي على شكل روحي وصوفي لمعرفة الله من خلال "اللمس" و"السمع" و"التذوق" و"الشم" و"معاينة" الكائن الإلهي المطلق [٩]. ينشأ اللاهوت المسيحي من حقيقة إعلان الله للناس [١٠].

كل آباء الكنيسة قدّموا في إجاباتهم على العبارات الهرطوقية المختلفة أو الأسئلة المطروحة من الفلاسفة اليونانيين، لغة محدودة عن الله، عندما كان عليهم التحدث عن عدم فهم الله واللاهوت والتدبير الإلهي [١١]. بشكل عام، ظهر مصطلح اللاهوت الصوفي حكماً من خلال النصوص المرجعية لديونيسيوس الأريوباغيتي وبشكل رئيسي في العمل "اللاهوت الصوفي (Mystica Theologia)"، لكن سياقه كان موجوداً في كتابات آباء الكنيسة الآخرين كتأمل صوفي أتاح للإنسان فهم وجود الله باعتباره "الظلمة الإلهية" أو الغنوفوس (γνóφος)، عن طريق الجهل [١٢].

تقود الظلمة الإلهية المؤمن إلى الاستنارة. إنها تُظهر اللقاء مع الله لا كفعل فهم بل كاتحادٍ يفوق الفهم. بهذا المعنى، يمكننا أن نجد سياق اللاهوت الصوفي، وليس الكلمة بحد ذاتها، بشكل رئيسي في كتابات غريغوريوس النيصي ومكسيموس المعترف أيضاً. في اللاهوت الأرثوذكسي، علم معرفة الله (gnoseology)، اللاهوت الصوفي رمزي. يتم التمييز بين "جوهر" و"قوى" الله. يمكننا بلوغ معرفة القوى الإلهية غير المخلوقة، وليس الجوهر الإلهي. الله لا يُدرك بالعقل (unintelligible) [١٣]. على كل عقل بشري أن يقبل العجز عن إدراك الله بالعقل [١٣]. الله غير محدود وغير مدرك وكل ما يمكن فهمه عنه هو لاتناهيته وغموضه. إن كل ما يمكننا تأكيده بشأن الله لا يُظهر طبيعة الله، بل فقط صفات طبيعته [١٤].

إن الإشارة من وجهة النظر الأنطولوجية إلى تلك المعرفية (الغنوصية) التي يمكننا أن نلاحظها من خلال اللاهوت، أن توق النفس البشرية إلى الله هو تدنيس. لا يمكن إشباع هذا الشوق إلا بالوحدة الصوفية مع الله. يُبلّغ إلى هذا الاعتراف بالله من خلال التطهر الداخلي والاستنارة والوحدة. إن الاعتراف بالله، العيش معه، هما أعلى أشكال النعيم عند الآباء. يمكن وصف الطريق إلى الله بمصطلح الظلام (الصيرورة عدماً) والنور (النعيم). أولاً يجب على الإنسان أن يتخلص من التبعية الداخلية والتعلق بالأشياء المادية، من ثم يجب عليه أن يمر بظلام حلّ الأنا فيستفيق في نور الله.

[١] أستاذان في الجامعة اليونانية المفتوحة.

[٢] هذا الجزء هو المدخل إلى مقالة أوسع سوف ترد في المجلة على أجزاء:

Artemi, Eirini & Terezis, Christos (2019), "La teología mística como camino del hombre para el Conocimiento divino en los escritos de Gregorio de Nyssa, Areopagita de Dionisio y Máximo el Confesor", De Medio Aevo 13  
اللاهوت الصوفي كطريق للإنسان إلى المعرفة الإلهية في كتابات غريغوريوس النيصي وديونيسيوس الأريوباغيتي ومكسيموس المعترف.

[3] A. Louth, The Origins of the Christian Mystical Tradition, (Oxford: Oxford University Press, 2007), <http://ixoyc.net/data/Fathers/525.pdf>. Chr. Terezis, Plato – Aristotle: to a reconciliation, Thessaloniki, 2011, p. 68-122; Chr. Terezis, "Aspects de la notion de mal chez Proclus et chez Denys l' Aréopagite. Une rencontre", Byzantion, 70 (2000), p. 491-506.

[4] Plotinus, Enneads 5.1; 5.9, Plotini opera, vol. 2, (Leiden: Brill, 1959), (p. 260-427), esp. 260- 280; 389-427.

[5] Cyril of Alexandria, That Christ is One, Sources Chrétienes 97, 75421 (=PG 75, 1321C).

[6] 1 Jn 4:8, transl. By E. Artemi.

[7] Vl. Lossky, The mystical theology of the Eastern Church, Crestwood -New York: St Vladimir's Seminary Press, 1994, p. 7.

[8] N. Russell, Fellow Workers with God: Orthodox Thinking on Theosis, Crestwood -New York: St Vladimir's Seminary Press, 2009, p. 12:

"التأله هو استعادتنا كأشخاص إلى التمامية والكمال من خلال المشاركة في المسيح بالروح القدس، في عملية تبدأ في هذا العالم من خلال حياتنا في الشركة الكنسية والسعي الأخلاقي، وتجد الاكتمال النهائي في اتحادنا مع الآب، كل ذلك ضمن السياق الواسع للتدبير الإلهي".

[9] H. D. Egan, SJ, Christian Mysticism: The Future of a Tradition, Oregon, 1984, p. 11.

[10] Vl. Lossky, Orthodox Theology: An Introduction, trans. I. Kesardoci-Watson, Crestwood -New York: St Vladimir's Seminary Press, 1978, p. 17.

[11] Vl. Lossky, In the Image and Likeness of God, New York: St. Vladimir's, Crestwood, 1985, p. 15:

"يظل التمييز بين التدبير واللاهوت... شائعاً لدى معظم الآباء اليونانيين ومجمل التقليد البيزنطي. اللاهوت... يعني، في القرن الرابع، كل ما يمكن قوله عن الله في ذاته، خارج تدبيره الخلاق والخلاصي. للوصول إلى هذا 'اللاهوت' المزعوم بشكل صحيح، يجب على الإنسان إذن أن يتجاوز... الله بصفته خالقاً للكون، حتى يكون قادراً على تمييز مفهوم الثالوث من المُفْتَضِّيات الكونية الخاصة بالتدبير."

E. Artemi, Isidore's Pelousiote triadological teaching and its relation to Cyril's of Alexandria teaching about the Triune God, Athens 2012, p. 327- 333. Al. V. Nesteruk, Light from the East: Theology, Science, and the Eastern Orthodox Tradition, Minneapolis: Fortress Press, 2003, p. 56.

[12] H. D. Egan, SJ, An Anthology of Christian Mysticism, Minnesota, 19962 , p. XXI.

[13] E. Artemi, "Gregory Nazianzen's trinitarian teaching based on his Twentieth. Theological Oration -La doctrina trinitaria de San Gregorio Nacianceno basada en si Quinta Oración Teológica", in De Medio Aevo 4 (2013/2), (127-146), 139, <http://capire.es/eikonimago/index.php/demedioaevo/article/view/92>. A. Versluis, Dionysius' Mystical Theology, chapter 1, footnote 1, [www.esoteric.msu.edu/Volumell/MysticalTheology.html](http://www.esoteric.msu.edu/Volumell/MysticalTheology.html):

"العمه (agnosia) [فقدان الإدراك: المترجم]، ليس الجهالة أو الجهل المطبق (nescience) كما يُفهم عادةً، بل هو إدراك أنه لا توجد معرفة محدودة قادرة على معرفة اللامحدود بالكامل، وبالتالي لا يمكن الاقتراب منه فعلاً إلا من خلال العمه، أو ما هو أبعد وما فوق المعرفة. هناك نوعان رئيسيان من الظلمات: الظلمة الخافتة والظلمة الفائقة، ويقع بينهما، إذا جاز التعبير، طبقة (octave) من الضوء. لكن الظلمة السفلى والظلمة الإلهية ليسا نفس الظلمة، فالأولى هي غياب النور، بينما الأخيرة هي فائض من النور. الأولى ترمز إلى الجهل المحض، والأخرى ترمز إلى الجهل المتسامي، أي المعرفة الفائقة التي لا تُكتسب عن طريق العقل المنطقي".

- [14] E. Artemi, "The Divine Gnosiology of Gregory of Nyssa and Nicholas of Cusa", International Journal of Social Science and Humanities Research ISSN 2348-3164 (online) Vol. 3, Issue 1, (January - March 2015), 11-19, esp. 12 Available at: [www.researchpublish.com](http://www.researchpublish.com).